النضال ضد الاستعمار الأجنبي، في عدد من الأقطار العربية. أبرز سمات هذا التوجه، هو الانتقال الذي طرأ على المشروع السلفي من زاوية تطوره التاريخية ومن كونه مشروعاً يهدف إلى تجديد واصلاح الفكر الاسلامي، في نطاق ضيق ينحصر في إطار تنقية الدين الاسلامي من اشكال البدع والخرافات والجمود الذي طرأ عليه، واجتراح حلول توفيقية تنبع من الاجتهادات السنية السابقة التي عرفها الفكر الاسلامي، إلى مشروع ايديولوجي متكامل ذي مشاغل ثقافية وسياسية اجتماعية، تتجاوز الاطار السابق. أي الانتقال من الطابع التنظيري الاصلاحي الذي كانت تشكل المهمة الرئيسة التي حددتها الحركة السلفية الأولى إطاراً وحيداً لدورها، إلى مستوى الممارسة الاجتماعية والسياسية، كما أفصح عنها المشروع الثوري للحركة السلفية الوطنية المتأخرة. وهنا يكمن المدلول التاريخي الذي حاولت ان تضطلع به الحركة السلفية الوطنية، كما تجلى ذلك في التجربة القسّامية.

مميزات الحركة القسّامية

وهنا، أيضاً، نقترب من تحديد الاطار العام الذي يمكن من خلاله التعرف على الايديولوجيا التي ميّزت الحركة القسّامية، داخل الاطار العام لبنية الحركة الوطنية الفلسطينية. ولقد بيّنا، بنوع من الايجاز، العلاقة التي باتت تربط هذه الايديولوجيا بمصدرها التاريخي في اطار الحركة السلفية الاصلاحية الحديثة. فقد قلنا ان التحولات التي طرأت منذ الحرب الأولى، ضيقت من هامش تحرك السلفي، وقلنا ان اخفاق الحركة القومية كان قد مهّد إلى جعل الحركة السلفية تتصدر المسرح، وهو الأمر الذي كان يفرض عليها هذا الانتقال في شكل الممارسة الايديولوجية والسياسية على هذا النحو الذي اصبح فيه المشروع السلفي مشروعاً شمولياً، في مشاغله واهتماماته.

ان الغرض الاساسي من اعادة التأكيد على ذلك هو التوصل الى تحديد واحدة من اعقد الاشكالات التي كان على الحركة السلفية أن تجابهها، وهي ترث هذا الاخفاق المزدوج، الذي انتهى إليه الجانبان، القومي والسلفي، في تجاربهما السابقة، وهو، أيضاً، الاشكال الذي وسم الحركة الجديدة بهذا الطابع الذي حملته الحركة السلفية ميّز ممارستها الجديدة، في مزجها بين الطابع الديني والقومي في المشروع الذي تطرحه. وربما هذا الاستنتاج يسمح لنا بتغيير واقع ان علاقة التقارب والتنسيق بين الحركة القسّامية وزعيمها، كانت مع زعماء حزب الاستقلال الفلسطيني، اكثر من الأطراف الأخرى.

لكننا نريد، عبر رؤية هذا الاشكال الذي ميّز ممارسة الحركة القسّامية، التوصل إلى تبرير واحد من أهم الاستخلاصات التي يسعى هذا البحث إلى اظهارها؛ وهو ان المشروع السلفي كما يتبدى في التجربة القسّامية، أو غيرها، لم يعد منذ وقوع المنطقة تحت الاستعمار المباشر، يقتصر على كونه مشروعاً دينياً بقدر ما اصبح يشكل مشروعاً سياسياً بالدرجة الأولى، وذلك على الرغم من الدور المركزي الذي تلعبه الايديولوجيا الدينية في صياغته.

ان هذا التشديد على الطابع السياسي ـ الاجتماعي للسلفية الوطنية لا يعني تحول الدين الى عامل ثانوي في المنظور الذي يطرحه المشروع السلفي، وانما يعني اعادة موضعة الايديولوجيا الدينية في اطار الاشكالية التي تجابهها الحركة السلفية بعد ان غدت، الآن، تحمل في مشروعها الاهداف الوطنية والقومية.